

مختصر

جامع العلوم والحكم

للإمام الحافظ ابن رجب الجنبلي

أخضرة وعلاق عليه

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنتا





الحديث الرابع والعشرون

■ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يروي عن ربه جلَّ جلاله، أنه قال: «يا عبادي؛ إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتهُ بينكم مُحَرَّمًا؛ فلا تظالموا. يا عبادي؛ كلُّكم ضالٌّ إلا مَنْ هديتهُ؛ فاستهدوني أهدكم. يا عبادي؛ كلُّكم جائعٌ إلا مَنْ أطعمتهُ؛ فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي؛ كلُّكم عارٌ إلا مَنْ كسوتهُ؛ فاستكسوني أكسكم. يا عبادي؛ إنكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوبَ جميعًا؛ فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي؛ إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر



قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا
عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمُ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي
صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي؛ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ
ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا
عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِّيْكُمْ بِهَا؛
فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ
إِلَّا نَفْسَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

﴿ الشَّرْحُ ﴾

هَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: «هُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ لِأَهْلِ الشَّامِ»^(١).

* فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ -: « يَا عِبَادِي؛
إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي »:

(١) لأن رواية إسناده جميعهم شاميون، وأبو ذر قد سكن الشام مدة.



يَعْنِي: أَنَّهُ مَنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الظُّلْمِ لِعِبَادِهِ؛ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى الظُّلْمِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ فَضْلًا مِنْهُ وَجُودًا.

* وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا»:

الظُّلْمُ نَوْعَانِ:

* **أَحَدُهُمَا:** ظَلَمَ النَّفْسِ؛ وَأَعْظَمُهُ: الشَّرْكَ، ثُمَّ يَلِيهِ: الْمَعَاصِي عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا؛ مِنْ كِبَائِرَ وَصَغَائِرَ.

* **وَالثَّانِي:** ظَلَمَ الْعَبْدَ لِغَيْرِهِ؛ وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

وَفِي «الصَّحِيحِينَ»، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الظُّلْمُ ظُلْمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). وَفِي «صَحِيحِ

الْبُخَارِيِّ»، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٤٧)؛ وَمُسْلِمٌ (٢٥٧٩).



لَهُ حَسَنَاتٌ؛ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ» (١).

* قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطَعْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»:

هَذَا يَقْتَضِي أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَلْبِ مَصَالِحِهِمْ، وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ؛ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧)

[الكهف: ١٧].

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).



وفي الحديث دليلٌ على أن الله يُحبُّ أن يسأله العبادُ جميعَ
مصالحِ دينهم ودنياهم؛ من الطعام، والشراب، والكسوة،
وغير ذلك؛ كما يسألونه الهدايةَ والمغفرةَ.

وفي الحديث: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها؛ حتى
يسأله شسع نعله إذا انقطع»^(١).

وكان بعضُ السلفِ يسألُ الله كلَّ حوائجه؛ حتى ملح
عجينه، وعلف شاته؛ فإن كلَّ ما يحتاج العبدُ إليه إذا سأله من
الله؛ فقد أظهر حاجته فيه وافتقاره إلى الله؛ وذلك يحبه الله.

وكان بعضُ السلفِ يستحي من الله أن يسأله شيئاً من
مصالح الدنيا! والافتداءُ بالسنةِ أولى^(٢).

(١) أخرجه الترمذيُّ كما في بعض النسخ. انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٣٩٢)،
وذكر الشيخ الألباني أن الحافظ ابن حجر حسنه في «زوائد البرار» (ص ٣٠٥).

(٢) ومن أظهر الأدلة على ذلك ثناء الله على المؤمنين الذين يدعونه فيقولون:

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢٠١)

[البقرة: ٢٠١].



* وقوله: «كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتَهُ»:

قَدْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مَعَارِضٌ لِحَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ،
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: خَلَقْتُ عِبَادِي
حُنْفَاءَ (وَفِي رِوَايَةٍ مُسْلِمِينَ)؛ فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ» (١).
وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ بَنِي آدَمَ وَفَطَّرَهُمْ عَلَى قَبُولِ
الإِسْلَامِ، وَالْمِيلَ إِلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَالتَّهَيُّؤَ لَذَلِكَ، وَالِاسْتِعْدَادَ
لَهُ بِالْقُوَّةِ، لَكِنْ لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ تَعْلِيمِ الإِسْلَامِ بِالْفِعْلِ؛ فَإِنَّهُ
قَبْلَ التَّعْلِيمِ جَاهِلٌ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا؛ كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:
٧٨]، وَقَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٧)
[الضحى: ٧]، وَالْمَرَادُ: وَجَدَكَ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَا عَلَّمَكَ مِنَ
الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى:

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٨٦٥).



[٥٢]؛ فالإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق، فإن هداه الله سبب له من يعلمه الهدى؛ فصار مهتدياً بالفعل بعد أن كان مهتدياً بالقوة، وإن خذله قيض له من يعلمه ما يغير فطرته؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه» (١).

وأما سؤال المؤمن الهداية من الله؛ فإن الهداية نوعان:

* هداية مجملة؛ وهي: الهداية للإسلام والإيمان، وهي حاصلة للمؤمن.

* هداية مفصلة؛ وهي: هدايته إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام، وإعانتة على فعل ذلك. وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلاً ونهاراً؛ ولهذا أمر الله عباده أن يقرأوا في كل ركعة من صلاتهم قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وكان

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢١٩)؛ ومسلم (٢٦٥٨).



النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ بِاللَّيْلِ: «أَهْدِنِي لِمَا
اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

ولهذا يُشَمَّتُ العاطسُ فيقالُ له: «يرحمك الله»، فيقولُ:
«يَهْدِيكُمُ اللهُ»؛ كما جاءتِ السُّنَّةُ بذلك^(٢)، وإنْ أنكره مَنْ أنكره
مِنَ فقهاءِ العِراقِ؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ المُسلمَ لا يَحْتَاجُ أَنْ يُدْعَى لَهُ
بِالهُدَى! وخالفَهُمُ جمهورُ العلماءِ؛ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ فِي ذَلِكَ.

وقد أمرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا أَنْ يَسْأَلَ اللهَ السَّدَادَ وَالهُدَى^(٣).
وَأَمَّا الاستغفارُ مِنَ الذُّنُوبِ: فَهُوَ طَلْبُ المَغْفِرَةِ، وَالْعَبْدُ
أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي
الْقُرْآنِ ذِكْرُ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالْأَمْرُ بِهِمَا، وَالْحَثُّ عَلَيْهِمَا.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٧٧٠).

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٥٨٧٠).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٢٥).



وخرَجَ البُخَارِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١). وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَلَفْظُهُمَا: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ»^(٢).

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ الْأَعْرَبِيِّ الْمُزَنِيِّ، سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»^(٣). وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، وَلَفْظُهُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَاسْتَغْفِرُوا؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ كُلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ»^(٤).

* قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْبِي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»:

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٥٩٤٨).

(٢) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْكَبْرَى» (٦ / ١١٤)؛ وَابْنُ مَاجَهَ (٣٨١٥).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢).

(٤) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْكَبْرَى» (٦ / ١١٦).



يَعْنِي: أَنَّ الْعِبَادَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَوْصَلُوا إِلَى اللَّهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا؛ فَإِنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- فِي نَفْسِهِ غَنِيٌّ حَمِيدٌ؛ لَا حَاجَةَ لَهُ بِطَاعَاتِ الْعِبَادِ، وَلَا يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا هُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهَا، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِمَعَاصِيهِمْ؛ وَإِنَّمَا هُمْ يَتَضَرَّرُونَ بِهَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِ يُضُرُّوْا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «مَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ فَقَدْ غَوَى، وَلَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا»^(١)؛ وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (١٣١) [النساء: ١٣١]، وَقَالَ حَاكِيًّا عَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٨) [إبراهيم: ٨]، وَقَالَ:

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٠٩٧، ٢١١٩)، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ.



﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال:
﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾
[الحج: ٣٧].

والمعنى: أنه تعالى يُحِبُّ من عباده أن يتَّقوه ويُطِيعوه،
كما أنه يكره منهم أن يعصوه؛ ولهذا يفرح بتوبة التائبين إليه
أشدَّ من فرح من ضلَّت راحلته؛ التي عليها طعامه وشرابه
بفلاة من الأرض، وطلبها حتى أعْيى وأيس منها، واستسلم
للموت، وأيس من الحياة، ثم غلبته عينه فنام؛ فاستيقظ
وهي قائمة عنده^(١)، وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من
الفرح. هذا كله مع غناه سبحانه عن طاعات عباده وتوباتهم
إليه، وأنه إنما يعود نفعها إليهم دونه، ولكن هذا من كمال
جوده وإحسانه إلى عباده، ومحبته لنفعهم، ودفع الضرر
عنهم؛ فهو يُحِبُّ من عباده أن يعرفوه، ويحبوه، ويخافوه،

(١) كما في حديث عبد الله بن مسعود، عند البخاري (٦٣٠٨) ومسلم (٢٧٤٤).



وَيَتَّقُوهُ، وَيُطِيعُوهُ، وَيَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ، وَيُحِبُّ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُهُ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَغْفِرَةِ ذُنُوبِ عِبَادِهِ؛ كَمَا فِي رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنَمٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ لِهَذَا الْحَدِيثِ: «مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَنِي؛ غَفَرْتُ لَهُ، وَلَا أُبَالِي» (١).

وتفكروا في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِنْهُمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَكُنْ لَهِمْ سُلُوكٌ إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ فَإِنَّ فِيهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْمُذْنِبِينَ لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ، وَيُعَوِّلُونَ عَلَيْهِ فِي مَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِمْ غَيْرُهُ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي حَقِّ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ فَرَتَّبَ تَوْبَتَهُ عَلَيْهِمْ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٤٩٥)؛ وَابْنُ مَاجَهَ (٤٢٥٧)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ».



عَلَى ظَنِّهِمْ أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا خَافَ
مِنْ مَخْلُوقٍ، هَرَبَ مِنْهُ، وَفَرَّ إِلَى غَيْرِهِ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مِنَ
اللَّهِ؛ فَمَا لَهُ مِنْ مَلْجَأٍ يَلْجَأُ إِلَيْهِ، وَلَا مَهْرَبٍ يَهْرَبُ إِلَيْهِ إِلَّا هُوَ؛
فِيَهْرَبُ مِنْهُ إِلَيْهِ؛ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:
«لَا مَلْجَأَ، وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»^(١)، وَكَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ
بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَبِكَ مِنْكَ»^(٢).

* قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ
وَأَنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى اتَّقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ
مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، وَلَوْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ
قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»:

هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُلْكَهُ لَا يَزِيدُ بِطَاعَةِ الْخَلْقِ، وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ
بِرَّةً أَتْقِيَاءَ؛ قُلُوبُهُمْ عَلَى اتَّقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَلَا يَنْقُصُ مُلْكَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠٥٠)؛ وَمُسْلِمٌ (٢٧١٠).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٤٨٦).



بمعصية العاصين، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة؛
قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم؛ فإنه سبحانه الغني بذاته
عمّن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله؛ فملكه
ملك كامل؛ لا نقص فيه بوجه من الوجوه.

* قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ
وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي؛ فَأَعْطَيْتُ
كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا
يُنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»:

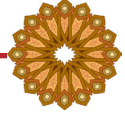
المراد بهذا: ذكر كمال قدرته سبحانه، وكمال ملكه،
وأن ملكه وخزائنه لا تنفذ ولا تنقص بالعطاء، ولو أعطى
الأولين والآخرين - من الجن والإنس - جميع ما سأله
في مقام واحد. وفي ذلك حثٌّ للخلق على سؤاله، وإنزال
حوادثهم به.



وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُدُّ اللَّهُ مَلَأَى؛ لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءٌ»^(١) اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَمِينِهِ»^(٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»؛ لِتَحْقِيقِ أَنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يَنْقُصُ الْبَتَّةَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]؛ فَإِنَّ الْبَحْرَ إِذَا غَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ أَخْرَجَتْ؛ لَمْ يَنْقُصْ مِنَ الْبَحْرِ بِذَلِكَ شَيْءٌ؛ وَهَذَا لِأَنَّ الْبَحْرَ لَا يَزَالُ تَمَدُّهُ مِيَاهُ الدُّنْيَا وَأَنْهَارُهَا الْجَارِيَةُ؛ فَمَهْمَا أُخِذَ مِنْهُ لَمْ يَنْقُصْهُ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ يَمُدُّهُ مَا هُوَ أَزِيدُ مِمَّا أُخِذَ مِنْهُ، وَهَكَذَا طَعَامُ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَدُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَكَهْمَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ [٣٢] لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ [٣٣] ﴿[الواقعة: ٣٢-٣٣].

(١) يدالله «سحَاء»، أي: دائمة الصب والهطل بالعطاء. انظر: «النهاية» (٢/ ٣٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤١١)؛ ومسلم (٩٩٣).



وقد بينَ في الحديثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وابنُ ماجَهَ:
السَّبَبَ الَّذِي لِأَجْلِهِ لَا يَنْقُصُ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِالْعَطَاءِ؛ بقوله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَلِكَ بَأْنِي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَا جُدُّ، أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ؛
عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ؛ إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ
أَقُولَ لَهُ: كُنْ؛ فَيَكُونُ»^(١).

لَا تَخْضَعَنَّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى طَمَعٍ فَإِنَّ ذَاكَ مُضِرٌّ مِنْكَ بِالدِّينِ
وَاسْتَرْزِقِ اللَّهَ مِمَّا فِي خَزَائِنِهِ فَإِنَّمَا هِيَ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ

* قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ
أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِّيْكُمْ بِهَا»:

يَعْنِي: أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- يُحْصِي أَعْمَالَ عِبَادِهِ، ثُمَّ يُوفِّيهِمْ
بِهَا بِالْجَزَاءِ عَلَيْهَا؛ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَانْعَادِرُوا
الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجَزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ
تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم

(١) هذا جزء من رواية الترمذي وابن ماجه لحديث أبي ذر، وقد تقدم تخريجه قريباً.



جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا
لَنَا نُورَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحريريم:
٧-٨]، وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا

﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

* وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ،
وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»:

إشارةً إلى أَنَّ الخَيْرَ كُلَّهُ مِنَ اللَّهِ؛ فَضُلٌّ مِنْهُ عَلَى عِبْدِهِ،
مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهُ، وَالشَّرَّ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِ ابْنِ آدَمَ مِنْ اتِّبَاعِ
هُوَ نَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا
أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؛ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا
أَرَادَ تَوْفِيقَ عَبْدٍ وَهُدَايَتَهُ؛ أَعَانَهُ وَوَفَّقَهُ لَطَاعَتِهِ؛ فَكَانَ ذَلِكَ
فَضْلًا مِنْهُ، وَإِذَا أَرَادَ خُذْلَانَ عَبْدٍ؛ وَكَلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَخَلَّى
بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا؛ فَأَغْوَاهُ الشَّيْطَانُ لَغْفَلَتِهِ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ، ﴿وَاتَّبَعَ



هُوَ هُوَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٢٨﴾ [الكهف: ٢٨]، وَكَانَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْحُجَّةَ قَائِمَةً عَلَى الْعَبْدِ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ؛ فَمَا بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ: أَنَّهُمْ يَحْمَدُونَ اللَّهَ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴿[الأعراف: ٤٣]، وَقَالَ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وَقَالَ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿[فاطر: ٣٤-٣٥].

وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ: أَنَّهُمْ يَلُومُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَيَمُقْتُونَهَا أَشَدَّ الْمُقْتِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ



إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ
لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي
وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].



التصميم الداخلي للكتاب

TharwatSultan@yahoo.com

Tharwat Sultan

للتواصل:  

00201019530152